– «صاح زهدي: يا «أبو صابر». أطلت امرأة في الاربعين،....، تحمل في معصميها ما لا يقل عن ربع كيلو من الذهب» (ص ٩١).

– «العمال يشتغلون هناك [في المعامل الاسرائيلية] وحالهم ذهب» (ص ٨٠).

وكما نرى، فإن الكاتبة تؤكد على الأحوال «الذهبية» للعمال، لكنها بعد ذلك تعود إلى رسم الوجه السلبي للاحتلال:

– «أبو صابر لا يحمل إذن عمل وهو بالتالي غير مؤمن» (ص ٥٦). وعندما تقطع الآلة أصابعه فإن وضع العاملين لدى العدو يأخذ مظهرا مأساويا: «كانوا يلتفون حول الرجل المطروح أرضا. نوافير دموية تتدفق من أصابعه الاربعة. والسائل الاحمر يغوص في تربة رملية اقتلعت منها جذور البرتقال حديثا» (ص ٥٦). تستبين في هذا الوصف الذي يحتضن الجرح والأرض والبرتقال كل مأساة الفلسطيني الذي غادر الأرض الاولى ودخل مضاعفا اغترابه إلى المعمل الإسرائيلي تسللاً. نسأل بعد هذا، من أين يجيء الذهب، وإذا جاء فهل يدوم طويلاً؟: «الفلا. الفلا نار كاوية، البلد والناس اللي كانوا يشتروا كيلو صاروا يشتروا نص» (ص ٧٩).

لست أدري كيف يمكن التوحيد بين هذين الجانبين المتناقضين حتى الانفجار؟ والتوحيد، كما نرى، مستحيل، لذلك تعاملهما الكاتبة كما لو كانا متوازيين ابداً. لكن الواقع هو غير ذلك وهنا تكمن «هفوات» الرواية: لا يرى الوعي الموضـوعي الواقـع كجملة عناصر متوازية، بعضها سلبي وبعضها إيجابي، لكنه يرى هذا الواقع في وحدته المتناقضة، إذ أن السلبي المطلق في شرط معين لا وجود له، كما أن الإيجابي المطلق لا وجود له أيضا، هناك وحدة يتناقض فيها السلبي والإيجابي بمعناهما النسبي، فإذا كان العمل في المصانع الإسرائيلية يساعد الفلسطيني على الحصول على لقمة العيش والبقاء فوق الأرض، فإن هذا العمل ذاته يدفع إلى التخلي عن الزراعة ويؤدي إلى دعم الاقتصاد الاسرائيلي وتقديم يد عاملة بسعر رخيص.

إن عدم اقتراب كاتبة «الصبار» من وحدة الواقع المتناقضة، هو الذي يوصلها أحيانا إلى المنطق الشكلي، أو إلى ما دعوناه بالثنائية القائمـة على السلبي والإيجـابي اللذين لا يلتقيان، فبالإضافة إلى «العمل الإسرائيلي» في حديه «المستقيمين»، تلمس الرواية أيضا «صراع الاجيال»، أو ما يقاتل في سبيل الوطن، وما يظل «صامتـا»: «السجن للفتيان والصبيان. والرجال ينطلقون في باصات «إيغد» ليكملوا بناء الدولة» (ص ٢١١)، «وأنا خايف ها الأولاد يعملوا عملة وندور احنا نترجّى رئيس البلدية والصليب الاحمر» (ص ٨٢).

نقول هنا، ربما يعود بعض ما هو «غائم» في الرواية إلى تعقّد جملة العلاقات في الواقع الفلسطيني، الذي يدفع بالكاتبة إلى «حياد» ظاهري، أو إلى «هروب» في الإجابات الناقصة. ويمكن أن نستعيد هنا وصف الكاتبة لشخصية «عادل»، ونطبق عليها الوصف نفسه: «في رأسي خليط لا أستطيع تحديد معالمه، وبالتالي لا أستطيع تحديد موقعي بـوضـوح» (ص١٩). وعندما نماثل كاتبة «الصبار» بـ«عادل» فإننا لا نطلق حكماً مطلق السراح